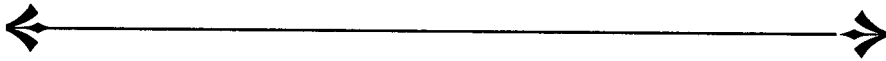


الأمير عبد القادر الجزائري من خلال كتاب «الرحلة الحجازية»

عبد القادر خليفني^(١)



الأمير عبد القادر هو زعيم المقاومة المسلحة ضد الغزو الفرنسي للجزائر سنة ١٨٣٠. حارب الاستعمار طيلة سبعة عشر عاماً (١٨٣٢ - ١٨٤٧). تولى القيادة بعد والده محيي الدين الذي كان قد قاد المقاومة قبله لمدة سنتين (١٨٣٠ - ١٨٣٢). دوّخ الأمير فيها القوات الفرنسية الغازية المدربة والمسلحة أحسن تسليح. وهزمها في عدة معارك، وفرض على قادتها الاعتراف بسلطته وعقد الاتفاقيات معه، كمعاهدة دي ميشال سنة ١٨٣٤ ومعاهدة التافنة سنة ١٨٣٧. وبعد صراع طويل بين قوى غير متكافئة اضطر الأمير أمام الظروف الصعبة التي لقيته داخلياً وخارجياً إلى التوقف عن المقاومة ووضع السلاح أمام الجنرال لامويسيار والدوق دومال Duc d'Aumale ابن الملك الفرنسي آنذاك في شهر ديسمبر من سنة ١٨٤٧. وحملته الباخرة الفرنسية إلى فرنسا بدل السماح له بالاتجاه إلى المشرق حسب طلبه الذي وافق عليه ممثلو السلطات الاستعمارية. وأطلق سراحه نابليون الثالث سنة ١٨٥٢، فاتجه إلى بروسة بتركيا ومنها إلى دمشق حيث بقي هناك إلى أن وافته المنية سنة ١٨٨٣.

(١) أستاذ محاضر بقسم التاريخ بجامعة وهران.

أما كتاب «الرحلة الحجازية» لمحمد السنوسي الذي نحن بصدد تصفح بعض محتوياته، والذي سنعتمده في هذه المقالة، فيشتمل على ثلاثة أجزاء، تعرض مؤلفه في الجزء الثالث منه لترجمة الأمير عبد القادر، وذلك في ستة وثلاثين صفحة، من صفحة ١٧٨ إلى ٢٢٤ من الكتاب المحقق من قبل علي الشنوفي والصادر سنة ١٩٧٨ عن الشركة التونسية للتوزيع. استهله المؤلف بصورة مكبرة للأمير عبد القادر وهي الصورة المعروفة عنه؛ حيث يظهر وهو واقف (ببرنوسه) الأبيض صدره مزين بنياشين متعددة على الشق الأيمن من صدره.

وتشتمل المفردات المخصصة للأمير في هذه الرحلة على ما يلي:

- ترجمة الأمير عبد القادر الحسني.
- بيعة العروش والقبائل للأمير عبد القادر الحسني.
- حروب الأمير عبد القادر ضد الجيش الفرنسي.
- عود إلى ترجمة الأمير عبد القادر الحسني.
- حماية الأمير عبد القادر الحسني لنصارى سكان جبل لبنان عام ١٨٦٠.
- مؤلفات الأمير عبد القادر.

— كتاب من محمد بيرم الخامس إلى الأمير عبد القادر للتعريف بالمؤلف.

— منزلة الأمير عبد القادر الحسني لدى أهل دمشق.

— اجتماع المؤلف بالأمير عبد القادر الحسني.

— عود إلى ترجمة الأمير عبد القادر الحسني.

— مريثة المؤلف للأمير عبد القادر الحسني.

ففيما يخص العنصر الأول استهله محمد السنوسي بذكر سلسلة نسب الأمير قائلاً: «هو الشيخ محمد عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى... إلخ»، ذاكراً اتصال نسبه بالقطب الجيلي، ثم بسيد الكونين عليه الصلاة والسلام^(١). مبيناً شرف هذا النسب العريق، وعلى خصيصية هذا البيت بمشيخة الطريقة القادرية بمدينة معسكر ببلاد الجزائر، وتمييز أفراد العلم والصالح والجهاد في سبيل الله. وفي العنصر الثاني تحدث عن البيعة فبين الظروف المحيطة بها والأسباب الداعية إليها وبيان ما اتفق عليه من قبل أهل الحل والعقد^(٢).

وفي العنصر الثالث تحدث المؤلف عن حروب الأمير عبد القادر في مواجهة الجيش الفرنسي فبدأ بمعركة مضيق سيدي مبارك التي حدثت في شهر ديسمبر من سنة ١٨٣٥ والتي كان يقودها عن الجانب الفرنسي الجنرال كلوزيل، ثم استيلاء الفرنسيين على مدينة معسكر. وتحدث عن معركة

(١) محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، الجزء الثالث، تحقيق علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس ١٩٧٨، ص ١٧٩.

(٢) نفسه، ص: ١٨١.



تلمسان واستيلاء الأمير عليها رغم وقوف جماعة الكراغلة ضده، والذين مالوا إلى جانب غريمه المزاربي من قبيلة الدواير، الذي كان انضم بقبيلته إلى الفرنسيين؛ ثم اضطرار الأمير إلى ترك تلمسان أمام قوة الفرنسيين ومن والاهم (الكراغلة والدواير). ثم مهاجمة الأمير لمدينة وهران وانتصاره على القوات الفرنسية التي كان يقودها الجنرال تريزيل، ومسيرته نحو الشرق مروراً بالمدينة التي استولى عليها. وعند عودته اعترض طريقه تريزيل وجرت معركة المقطع سنة ١٨٣٦، التي كانت نصراً مؤزراً للأمير وكان من نتائجها استعادة مدينة معسكر. ثم تعرض لعقد معاهدة تافنا في ماي من سنة ١٨٣٧، بعد أن فشل بيجو في الانتصار على الأمير عبد القادر، مما جعل هذا الأخير يمتلك ثلاثة أرباع الأراضي الجزائرية.

وتحدث عن سيادة ابن في البلاد مما جعل الأمير يتجه إلى عين ماضي سنة ١٨٣٨ ويستولي عليها بعد انسحاب شيخها محمد الحبيب بن الشيخ التيجاني.

كما ذكر المؤلف ما قام به الفرنسيون من نقض لمعاهدة تافنا سنة ١٨٣٩ وعودة الفريقين الجزائري والفرنسي إلى القتال والحرب، ووصول الأمير إلى مشارف العاصمة، ثم تقهقره أمام قوة الفرنسيين، وانضمام مصطفى بن إسماعيل ابن أخ المزاربي السابق الذكر للفرنسيين، وهو أحد زعماء قبائل الدواير، مما أضعف من قوة الأمير وشد من أزر أعدائه.

ثم تحدث عن تحركات الأمير الكثيرة وتنقلاته العجيبة من مكان لآخر وغزوه للقبائل التي انضمت للفرنسيين، وفشل القوات الفرنسية وأعدائه في ملاحقته.

ويذكر المؤلف أن الأمير اضطر إلى الالتجاء إلى المغرب الأقصى سنة ١٨٤٣ لشدة محاربة الفرنسيين له ورفض السلطان المغربي مساعدته، بل إنه عمل على محاربته. وتعرض المؤلف لإحدى رسائل الأمير الموجهة إلى علماء مصر يستفتيهم فيها عن مسألة تدعيم سلطان المغرب للعدو الفرنسي، ثم خروجه من الأراضي المغربية مما أدى به إلى إلقاء السلاح والعودة إلى الجزائر في ١٨٤٧/١٢/٢٢ الموافق لسنة ١٢٦٤هـ.

وفي العنصر التالي تحدث عن كيفية نقل الأمير إلى فرنسا بدلاً من تحقيق طلبه بالتوجه إلى المشرق، وبقائه فيها إلى سنة ١٨٥٢، حين أذن له الإمبراطور نابليون الثالث بالذهاب نحو بروسة بتركيا ومنها إلى دمشق حيث حظي باستقبال يليق بمقامه في كل من تركيا وسوريا. ويذكر المؤلف الدور الذي قام به الأمير بحمايته للنصارى حين وقعت الفتنة بينهم وبين المسلمين في جويلية من سنة ١٨٦٠، وأوى إلى بيته وفي القصبة الآلاف منهم، ووقف هو وأتباعه على حراستهم.

أما عن مؤلفات الأمير فيتحدث عن رسائله الكثيرة في أحكام الجهاد والهجرة وأجوبته الارتجالية في أنواق الصوفية — ويقصد به كتاب «المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد» —، ويأتي بإحدى



قصائد الأمير حول معركة خنق النطاح، وهي تتكون من أربعة وأربعين بيتاً، كما يأتي بقصيدة أخرى حماسية في مدح البادية وهي في ست وثلاثين بيتاً وأخرى في الفخر، كما تحدث عن ابنه: الكبير محمد باشا الذي ألف كتاب جياذ الخيل تحت اسم «عقد الأجياد في الصافيات الجياذ»، وولده الثاني محيي الدين باشا الأديب الشاعر الذي قرط كتاب شقيقه هذا.

كما بسط لنا المؤلف رسالة حملها إلى الأمير وهي من قبل بيرم الخامس^(١) من تونس يتشوق فيها إليه ويوصيه بمحمد السنوسي حامل الرسالة خيراً، على أنه من أفاضل جامع الزيتونة. وذكر أن أهل دمشق يقدرّون الأمير أحسن تقدير ويسمونه بـ«السيد الأمير». كما ذكر أن هذا الأخير قد خصه ببيت كبير يستعمله للاجتماع مع الناس وبيت آخر بالعلو للنوم.

كما تحدث عن لقائه بالأمير في دمشق التي دخلها في صفر من سنة ١٣٠٠هـ الموافق للتاسع من شهر سنة ١٨٨٣، وأن الأمير رحب به ولبعض العلماء ترحيباً كبيراً وخصه ببعض الأسئلة عن أهله وبلده تونس وعن راحته في نزوله.

ويصف المؤلف الأمير بصفات حميدة من «سعة العلم والأدب والصلاح والخيرية وسعة الفضل وكرم النفس والشجاعة ورغد العيش وطول اليد ونفوذ الكلمة وبرور الأبناء مع حسن الأخلاق العذب المذاق»^(٢).

وفي الأخير يُظهر تدهور صحة الأمير وهرمه إلى أن أدركته المنية في الثامن عشر من شهر رجل سنة ١٣٠٠هـ الموافق للسادس والعشرين من شهر ماي سنة ١٨٨٣م. ويختتم كل ذلك بمرثية له في الأمير عبد القادر أرسلها إلى أبنائه بعد أن بلغه خبر وفاة والدهم، والقصيدة تتكون من تسعة وعشرين بيتاً مطلعها:

وأفاضَ سيلاً من دموعٍ محاجري
رَسَمُ الحُلُومِ فلمْ نَجِدْ مِنْ جَابِرِ
من روعٍ فَقَدِ الغرمِ عبدُ القادر^(٣)

نبأ بأسْهُمِهِ أَصَابَ حَنَاجِرِي
واندَكَ طَوْدُ الصَّبْرِ مِنْهُ وَقَدْ عَفَا
والناسُ في هَرَجٍ طَغَى ثِيَارُهُمْ

نقد وتعليق

الكتاب هذا عبارة عن تقايد رحلة قام بها صاحبها في نهاية القرن التاسع عشر، وبالتالي فالمؤلف يتحدث عن أشياء عايشها ورآها في أغلب الأحوال، وهو يتتبع الأحداث بحسب معاشته لها.

(١) بيرم الخامس من أعيان تونس، عين سنة ١٨٧٤ لإدارة جمعية الأوقاف في عهد خير الدين، وقد توفي بمصر سنة ١٨٨٩.

(٢) محمد السنوسي، ص: ٢١٩.

(٣) محمد السنوسي، ص: ٢١٩.



وهو يشتمل على مباحث متعددة، كل عنوان يدل على حدث محدد أو قصيدة شعرية أو تعريف شخصية أو غير ذلك. أي أنه ليس كتاباً أكاديمياً يشتمل على أبواب وفصول ومباحث ومطالب... إلخ، لأنه كتب في القرن التاسع عشر فلا مجال إذن لأن يُخضع المؤلف كتابه لمثل هذه المنهجية الحديثة.

أما عن اللغة التي قُدِّم بها الكتاب فهي لغة سليمة؛ وإن كان يغلب عليها أسلوب القرن التاسع عشر لما فيه من استطراد حيناً ومدح مبالغ فيه حيناً آخر، واستعماله لكلمات ومصطلحات ذلك العصر مثل: «المحلة» ويقصد بها القطعة من الجيش، و«الفرنسوية» و«الفرنساوي» بدل المصطلح المعاصر: الفرنسية والفرنسي، واستعمال كلمة «المراحل» لتحديد المسافات بدل الكيلومترات، وكلمة «النصارى» بدل المسيحيين أو الأوربيين، واستعماله التاريخ الهجري في أكثر فقرات الرحلة. يذكر عبد الله العروي عن مصطلحات القرن التاسع عشر أنه عندما شرع في قراءة وثائق القرن التاسع عشر كان لا يرى «فرقاً بين الجهاد والوطنية، فلما صادف الكلمة فهم منها تلقائياً الدفاع عن حوزة الوطن».

ويواصل في السياق نفسه: «بدأت بفهم المخزن في ضوء مفهوم الدولة المعاصرة، والعامة في ضوء الجماهير، والخاصة في ضوء النخبة، والشرف في ضوء النبل، والحرفة في ضوء النقابة، والزاوية في ضوء الحزب السياسي»^(١).

أي أن لكل عصر مميزاته ومصطلحاته؛ والمعروف أن اللغة في حركة دائمة، وهي في اندفاع لا أحد يمكنه إيقافها ووضع القيود والمعايير في طريقها، كما أنه لا قدرة لأحد على مخالفتها أو الخروج عن مقتضى التوافق معها، ولا يمكن اعتبار هذا التغير إلى الأحسن أو إلى الأسوأ، لكن المهم أن اللغة تؤدي دورها الاجتماعي بين الناطقين بها^(٢).

أما فيما يخص الحديث عن الأمير عبد القادر فقد حاول المؤلف أن يرتب حديثه بتتبع ترجمته تاريخياً، بالتعريف بنسبه وبيئته فحروبه ثم نقله إلى فرنسا ومنها إلى المشرق، وأخيراً اجتمع المؤلف به في دمشق. إلا أنه أدخل بعض الأحداث داخل سيرة الأمير لا علاقة لها بها، منها مثلاً: «ثورة محمد بن الطاهر الكبلوتي»، ومنها «نظرية المؤلف في اختيار الأمراء والوزراء»، ومنها «سفر المؤلف من دمشق إلى بيروت»؛ فكان حرياً بالمؤلف أن يخصص لهذه الأحداث مباحث أخرى غير هذه.

وعن ترجمة الأمير تحدث المؤلف عن نسبه وعمن اشتهر من أسلافه القريبين، وانتقل مباشرة إلى بيعته وحروبه... إلخ. ولكنه أغفل الحديث عن الفترة التي سبقت مبايعته وهي النشأة والدراسة

(١) عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، الجزء الثاني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ١٩٩٢، ص: ٢٤٩.

(٢) ينظر محمد عيد، المستوى اللغوي، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨١، ص: ٢٩.

والعوامل المؤثرة فيه... إلخ. وبذلك جاءت ترجمة المؤلف للأمير ناقصة غير كاملة، وكان بإمكانه الحصول على ذلك من الأمير نفسه أو من أبنائه خلال مكوثه بدمشق. وعن المصادر والمراجع التي اعتمدها المؤلف في تحرير كتابه ليست هناك دلالات واضحة ما عدا بعض الإشارات، من ذلك قوله:

«وعندما أخذت بالإياب قراري، تعاطيت جمع ما وعته أسفاري...»^(١) وبعد أن يذكر ظروف احتجاز نقاييده ثم استعادتها فيما بعد، يضيف: «فما كان مني إلا أني راجعت ما إليه رجعت، وتعاطيت ما بذل من الهمة ما استعطت في جمع ما انتثر من نقاييد هذا الأنموذج المعتبر، وصيرتها إلى تأليف نستحسن موقعه في هذه العصور، وإن لم يخل باع جامعه من القصور، جمعت فيه ما شاهدته من الآثار مشروحة الأصول بما يفيد الاعتبار»^(٢). أي أنه اعتمد على ما جمع في رحلته ولم يبين لنا إن كان قد اعتمد على كتب ومؤلفات أخرى ساعدته على مؤلفه هذا.

وفيما يخص نصوص البيعة يذكر مراجعه في قوله: «نورد هنا منها (بيعة العروش والقبائل) ما أمكنني الوقوف عليه من نصوص البيعة بخطوط أيدي أصحابها وهذا نصها...»^(٣) ويقدم مجموعة من النصوص التي أمضى عليها مختلف أعيان القبائل آنذاك.

أما من الجانب الشكلي فيستعمل المؤلف لقب الحسني — بدل الجزائري مثلما هو متداول في العصر الحاضر — كلما ذكر اسم الأمير عبد القادر، وذلك في نهاية الاسم، وهي نسبة الأمير إلى جده الأعلى الحسن بن علي بن أبي طالب دون شك. وهو تشريف للأمير بهذه النسبة التي تربطه بأحد سبطي النبي ﷺ (الحسن والحسين). وقد اطلعنا على بعض رسائل الأمير فوجدناه يذيل رسائله بهذا اللقب أحياناً (المخلص عبد القادر الحسني)، منها رسالتاه إلى كل من الوزير التونسي خزندار وخير الدين المؤرختين بسنة ١٨٧٢ يستوصي فيهما خيراً بالمقرائين^(٤).

ومن الأمور الشكلية تسمية مدينة معسكر عاصمة الأمير بتسميتين أوردهما المؤلف ضمن كتابه، أولهما أم العساكر التي وردت في الصفحة ١٨٨، وأم عسكر التي وردت في الكتاب أربع مرات^(٥). بينما نجد تسميتها في كتاب محمد بن الأمير صاحب كتاب تحفة الزائر، ترد على الشكل نفسه الذي تتسمى به المدينة حالياً وهو معسكر، لأن هذا الكتاب هو المصدر المرجع لكل ما يكتب عن الأمير عبد القادر. فمن أين لهذا الكاتب بهذه التسمية، ولعل التفسير الوحيد هو رغبة المؤلف في إعادة

(١) محمد السنوسي، الرحلة، الجزء الأول، ص: ٤٢.

(٢) نفسه، ص: ٤٣. تعرضت وثائق المؤلف للاحتجاز ومنها تقييداته هذه، وذلك سنة ١٨٨٥ على إثر تزعمه لحركة احتجاجية ضمت حوالي ثلاثة آلاف متظاهر ضد الحماية الفرنسية، وقد نفى هو إلى مدينة قابس بالجنوب التونسي.

(٣) نفسه، الجزء الثالث، ص: ١٨١.

(٤) يحيى بو عزيز، كفاح الجزائر من خلال الوثائق، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٦، ص: ٣٥٧ و ٣٥٩ على التوالي. والمقرانيون هم الثوار الجزائريون الذين قاوموا السلطة الفرنسية سنة ١٨٧١ بزعامة الحاج أحمد المقراني بمساعدة الشيخ الحداد، وقد لجأ بعضهم إلى تونس بعد القضاء على حركتهم في الجزائر.

(٥) نفسه، ص: ١٧٩ — ١٨٩ — ١٩٠ — ١٩٣.



التسمية إلى اللغة الفصحى؛ إلا أن الأمر لا يتطلب هذا التحويل، إذ يجب إبقاء على التسميات على حالها مهما كان الحال، إلا إذا كانت المسألة تتعلق بمناقشة مصدر الكلمة اشتقاقاتها وأصولها اللغوية. ومن الأخطاء الشائعة التي يقع فيها البعض هو نطق بعض الكلمات العامية بالإعراب إذا ما وقع الاستشهاد بها في حال الكلام وبالخصوص في حالة الشعر الشعبي، إذ إن إعادة الكلمة إلى أصلها الفصيح يخل بالوزن الشعري وبالنغم الذي يعطي الشعر خصوصيته.

وبخصوص المحتوى نجد المؤلف عند حديثه عن حروب الأمير ينتقل مباشرة إلى ذكر معركة سيدي مبارك في ديسمبر ١٨٣٥، حين كان تريزيل يقود الجيش الفرنسي والذي استولى إثر ذلك على مدينة معسكر. وكلولزيل هذا هو الذي عينته الحكومة الفرنسية في أوت من سنة ١٨٣٥ خلفاً للضابط تريزيل الذي كان الأمير هزمه في معركة سيق وبعدها في معركة المقطع في جويلية من السنة نفسها.

وبذلك أهمل المؤلف أهم المعارك السابقة لهذه المعركة مثل معركة خنق النطاح الأولى والثانية ومعركة برج راس العين واتفاقية دي ميشيل. كما أن المؤلف لم يتعرض لواقعة سقوط عاصمة الأمير «الزمالة» بأيدي الفرنسيين في ١٦ من شهر ماي سنة ١٨٤٣، وهي من الأحداث التي كان لها وقع سيء على تاريخ الأمير؛ بل هي من أخطر الضربات التي وجهت للمقاومة الوطنية آنذاك وأشدّها ضرراً، يقول عنها ابنه محمد: «وبالجملة فإنها (واقعة سقوط الزمالة) كانت من أعظم الوقائع التي لا تؤدي العبارة تفصيلها ولا يذركُ اللسان تحصيلها...»^(١).

ويذكر المؤلف أن «ولد الأمير محيي الدين باشا وهو أديب شاعر أيضاً ألف في التعريف بوالده كتاباً مهماً ذكر فيه جميع أحوال والده وأطواره ومدائحه ومقاماته وأسفاره على وجه استوفى به جميع الغرض»^(٢). ويضيف: «هكذا أخبرني أخوه وابن عمه». وكأني به يقصد هنا كتاب «تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر» لصاحبه محمد بن الأمير وليس محيي الدين كما يقول. وهكذا وقع المؤلف في خطأ ثابت بنسبته كتاب محمد بن الأمير عبد القادر لأخيه محيي الدين. وهو لم يطلع على الكتاب ولكن قيل له فحسب، فلا مجال للشك في وقوع الخطأ من قبل المؤلف.

وعن قضية المعارضة التي لقيها الأمير يشير المؤلف إلى أن بعض أفراد عائلة الأمير قد «أبوا المبايعة وعلى الخصوص شيعة عمه علي أبي طالب، فإنه كان يتصدى لمقاومته، ولاقى الأمير من شقاق عائلته ما أفسد عليه كثيراً من الأعمال...»^(٣) بينما لا نجد لذلك ذكراً في كتاب محمد بن الأمير «تحفة الزائر»، والذي يذكر مثلاً أنه «اجتمع أشرفهم وعلماؤهم وأعيانهم وتداعى صغيرهم

(١) محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، الجزء الأول «سيرته السيفية»، المطبعة التجارية، الإسكندرية ١٩٠٣، ص: ٢٨٠.

(٢) محمد السنوسي، ج الثالث، ص: ٢١٣.

(٣) نفسه ص: ١٨٨.

وكبيرهم وخيموا بوادي فروحة من غريس عند شجرة الدردارة، وجاء سيدي الجد في بنيه وأقاربه وذويه... إلخ»^(١) ويواصل صاحب هذا الكتاب فيذكر أنه بعد مبايعة محيي الدين لولده عبد القادر، «قام عمه سيدي الجد لأمي علي أبي طالب (كان صهراً للأمير) وبإيعه وكذا الإخوة وسائر القرابة ثم الأشراف والعلماء والأعيان والرؤساء.. إلخ»^(٢) وأن جماعة من الأعيان المشاهير كتبوا على صك المبايعة «ما يؤذن بحضورهم للبيعة وشهادتهم على أنفسهم وعلى سائر من حضرها؛ فكتب العلامة سيدي الجد للأُم عم الأمير شقيق والده السيد علي أبي طالب بن مصطفى بن المختار ما نصه: الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله. بعد انعقاد البيعة للإمام المعظم والأمير الجليل المفخم ابن أخينا السيد عبد القادر بن محيي الدين أحيا الله بهما الدين وأعانهما على القيام بأمور أهله ودمر بهما الكفرة أولي العناد، وأهلك بسطوتيهما أهل البغي والفساد. بايعناه على السمع والطاعة وامتثال الأمر ولو في ولد الواحد منا أو نفسه، وقدمنا نفسه على أنفسنا وحقه على حقنا، وإني أوصيه بتقوى الله وطاعته في السر والعلانية.. إلخ»^(٣).

ومن جهة أخرى فإن الأمير لما تمت بيعته «واستقام له الأمر اتخذ الآلة ورتب الحاشية وعين رجال الدولة، فاستوزر محمد بن العربي واستكتب ابن عمه السيد أحمد بن علي أبي طالب»^(٤) في أول حكومة أقامها.

ويذكر صاحب كتاب تحفة الزائر دائماً — ابن الأمير — تهنئة عمه أبي طالب بعد معركة المقطع التي انتصر فيها الأمير على جيش الفرنسيين بقيادة الجنرال تريزيل في جويلية من سنة ١٨٣٥ في قوله: «وكان عمه، سيدي الجد، علي أبي طالب، قدم إليه، ثاني يوم المقطع، قصيدة تهنئة يقول فيها:

وهنيئاً لك البشري، نصرت على العدى	ودمرت جيش الكفر، بالقتل والخسف
وحزت مقاماً، دونه كل باسل	يرى الحرب، ميدان الخلاعة والقصف
بجيش عظيم، قد تفرّد في الوغى	له سطوة عزّت، وجلّت عن الوصف» ^(٥)

ويذهب أكثر من ذلك حين يذكر أن أبا طالب عم الأمير هو الوحيد الذي بقي إلى جانبه ذات يوم في إحدى معاركه (معركة حرش مولاي إسماعيل) ويقول: «ولم يبق مع الأمير سوى عمه، سيدي الجد للأُم، السيد علي أبي طالب، وهذه النادرة الاتفاقية ذكرتني ما وقع للنبي ﷺ في غزوة حنين حين

(١) محمد بن الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص: ٩٦ و ٩٧.

(٢) نفسه، ص: ٩٧. والمعروف أن زوجة الأمير هي ابنة عمه علي أبي طالب.

(٣) محمد بن الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص: ٩٩.

(٤) نفسه، ص: ١٠٣.

(٥) محمد بن عبد القادر، ص: ١٥٦.



تفرقت جيوشه حتى المهاجرين والأنصار ولم يبق معه سوى عمه العباس آخذاً بلجام بغلته ﷺ التي كان راكباً عليها يومئذ»^(١).

وعندما عرّض الأمير أمر الصلح مع الفرنسيين، فيما سيُسمى بمعاهدة تافنا (١٨٣٧)، حدث اختلاف في المجلس الذي جمعه الأمير، بين معارض لعقد الصلح ومؤيد، تدخل عمه علي أبو طالب مؤيداً لفكرة الأمير بعقد الصلح وذلك في خطبة سجلها محمد ابن الأمير في كتابه المعروف. فبعد أن يذكر تسلط الفرنسيين على البلاد واضطراب الأمر يضيف قائلاً: «... فأظهر الله تعالى بلطفه، بدر الدين ومؤيد كلمة المؤمنين ابن أخي هذا، السيد عبد القادر بن محيي الدين، فبذل الجهد في الذب عن الدين والوطن وأتى في ذلك من العجائب والغرائب ما هو به قمن، فكم من حروب أضرمها وكم من كروب أزالها عن المسلمين وأطفأ أوارها... فالنظر أيها السادة، إنما هو للإمام لا لغيره، وكيف تذهبون إلى أن عدم قبول الصلح أولى من قبوله! مع علمكم بقلّة الأنصار والأعوان وكثرة المشاغبين والمفسدين في الأقطار والأوطان...!»^(٢).

وبعد انتهاء عمه من الخطبة هذه اقتنع القوم بفكرة عقد الصلح واتفقت كلمة الجميع على ذلك ورأوا أن فيه مصلحة كبرى للأمة. فموقف كهذا من عم الأمير، وهو في أدق المواقف، من أكبر الدلائل على وقوفه إلى جانبه وليس ضده، فأين هي العداوة والمعارضة بين الرجلين!

والمؤرخ الفرنسي المعاصر برينو إيتيان Bruno Etienne في كتابه «عبد القادر» يذكر أنهم «كلهم هنا جالسين على شكل دائرة تحت سقف الخيمة التي كانت تعقد فيها الاجتماعات: أعمامه وأخوته وبعض عمومته، بنو طالب وبنو تامي الذين جلسوا في المقدمة لأنهم يعتقدون في مرتبتهم العائلية المتميزة، ولأنهم لم يفهموا جيداً كل ما كان يشعر به ابن محيي الدين...»^(٣).

إذن فمبايعة عمه ثابتة بعد والده محيي الدين مباشرة، وتعيين ابنه أحمد كاتباً في حكومته، ووجود عمه معه في ميادين القتال وتأييده له في المواقف الحرجة، تدل كلها على وقوف العائلة معه وليس ضده، وهي من الشواهد التي تثبت عكس ما قال صاحب الرحلة. فأين هي الحقيقة ومن أين جاء المؤلف بهذا الخبر؟ لقد فهم عم الأمير أن تآلف الأسرة وتكاتفها من أولويات العمل الناجح في ذلك الحين وفي تلك الظروف، ولذلك كان حاضراً في كل الظروف وكان الفيصل في المواقف. لقد كان يرى أنه في مكانة والد الأمير، بعد وفاة محيي الدين الوالد، الذي كان يمثل مستشار الأمير ودليله. وإلى جانب رابطة العمومة التي تربط بين الرجلين كانت رابطة المصاهرة رابطة أخرى تجمعهما

(١) نفسه، ص: ١٥١.

(٢) محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر، ص: ١٧٦.

(٣) انظر: Bruno Etienne. Abd El Kader, Hachette, ١٩٩٤. p/١٣١.

ولا تفرقهما، لأن زوجة الأمير هي ابنة عمه علي أبو طالب، والتي بقيت إلى جانبه رغم تختيار الأمير لها بين البقاء معه أو مفارقتة لأنه سينشغل عنها لمصالح الأمة، فكانت نعم الزوجة الوفية والصاحبة الأنيسة.

وإلى جانب كتاب محمد بن الأمير فإن الكتابات الأخرى لا تذكر شيئاً من ذلك، وبخاصة مذكرات الأمير وكتاب تشرشل الذي عاصر الأمير.

أما مذكرات الأمير عبد القادر فقد جاء فيها ما يلي: «فانعقدت البيعة وقتئذ يوم الأربعاء آخر شعبان سنة ثمان وأربعين ومئتين وألف، وخطب له على المنابر، ورضي به الصغير والكبير والجليل والحقير... فأذعنت له الأعراس وجاعته الوفود بالهدايا من كل ناحية... وانضم الشمل واجتمعت الكلمة بأمر عسكر، وتعينت دار إمارة في جميع الأرجاء القريبة واستمع أهلها للأمر والنهي...»^(١).

أما شارل هنري تشرشل صاحب كتاب «حياة الأمير عبد القادر»، والذي لقيه وتجاوز معه طيلة خمسة أشهر في شتاء ١٨٥٩ - ١٨٦٠، فيذكر في الفصل الثاني^(٢) أن الأمير «بدأ يتقبل البيعة من النبلاء والرؤساء الذين تجمعوا حوله، وقد ارتفعت أصوات عالية من المجلس كله مرردة: الحياة والنصر لسلطاننا عبد القادر». وفي الفصل الثالث يذكر أن الظروف التي عيّن فيها الأمير سلطاناً قد أثارت مشاعر الخصام بدل القضاء عليه، وذكر عدة أمثلة عن ذلك كسيدي العربي قائد قبيلة فليّنة والغماري قائد قبيلة أنجاد ومحمد بن نونة حاكم تلمسان من قبل سلطان المغرب ومصطفى بن إسماعيل الذي «عبر عن تقززه من تقبيل يد ولد ما يزال أمرد، حسب تعبيره»^(٣).

ويقول في مكان آخر إن الأمير «شعر أن الغيرة والتنافس الذين يحيطان به لا يمكن القضاء عليهما إلا بخوض المعركة، وأن كل الصعوبات الداخلية ستنتهي أمام النجاح...»^(٤) ولم يذكر تشرشل أي شيء عن الخصومة داخل أسرة الأمير مثلما ذكر مؤلف الرحلة.

يتبين من هذا كله أنه كانت هناك معارضة من قبل بعض الزعماء لسلطة الأمير عبد القادر، ومرجع ذلك أن هؤلاء رأوا أن نفوذهم سيتقلص إذا ما خضعوا له، ولذلك حاولوا التصدي له بوسائل مختلفة، منهم رؤساء القبائل وشيوخ الطرق الصوفية، وذلك حفاظاً على مكاسبهم ومراتبهم في

(١) مذكرات الأمير عبد القادر، تحقيق محمد الصغير بناني ومحفوظ سماتي ومحمد الصالح الجون، شركة دار الأمة، الجزائر ١٩٩٨، ص: ١٤٢.

(٢) شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمه وقدم له وعلق عليه الدكتور أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، الجزائر ١٩٨٢، ص: ٥٧.

(٣) شارل هنري تشرشل، ص: ٦١.

(٤) نفسه، ص: ٦٤.

السلطة والجاه، إلا أن دعم عائلته له كان ضرورياً جداً لمواجهة مختلف التحديات الداخلية والخارجية، فكيف إذن كانت هذه المعارضة من داخل بيته وبين بني عمومته!

ويخطئ المؤلف في تاريخ وفاة الأمير إذ يقول: «...إلى أن أدركته المنية ليلة السبت الثامن عشر من رجب الأصم ثلاث عشرة مائة الموافق للسّادس والعشرين من مايه الأفرنجي سنة ١٨٨٣ مسيحية». بينما يقول محمد بن عبد القادر الجزائري في التحفة، وهو المصدر الأصلي لكل ما يختص بحياة الأمير، كما ذكرنا ذلك سابقاً، إن الأمير توفي «ليلة السبت التاسع عشر من رجب سنة ١٣٠٠ والرابع والعشرين من أيام سنة ١٨٨٣»^(١). وهو كما نرى اختلاف في الأيام فحسب.

الخلاصة:

لقد اشتهر عن المغاربة تَوَقُّعهم إلى المشرق حيث منبع النبوة ومواقع الأماكن المقدسة؛ أي أن دوافعهم كانت روحية «بهدف الحج إلى الأماكن المقدسة، على أن الحاج قد يتجاوز هذا الهدف الأساسي... ويفضي به للترحال إلى أماكن بعيدة...»^(٢) ومحمد السنوسي هذا زار بالإضافة إلى الحجاز، كلاً من إيطاليا وتركيا وسوريا ولبنان ومصر ومالطة ثم عاد إلى بلدة تونس. فقنّد مشاهداته وملاحظاته، وتعرض خلال ذلك إلى كثير من المسائل وترجم لبعض الشخصيات وتحدث عن بعض العلوم والمخترعات. ومنها حديثه عن الأمير عبد القادر وذلك خلال وجوده بدمشق عاصمة سوريا في السنوات الأخيرة من عمر الأمير.

وأخيراً يمكننا القول إن مثل هذه الرحلات تحوي بين سطورها معلومات كثيرة يمكن الاستفادة منها في مختلف المجالات، إلا أن ذلك لن يكون إلا بعد تمحيص وحذر. وقد فتحت لنا هذه الرحلة مجالاً للدراسة والمناقشة والتعليق، وذلك ما تمكنا من ذكره آنفاً.

(١) محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي، دار البقعة العربية، بيروت ١٩٦٤، ص: ٨٥٧.

(٢) إسماعيل العربي، تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٦، ص: ٧.

المصادر والمراجع:

- ١- تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر، إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ١٩٨٦م.
- ٢- تحفة الزائر في مآثر عبد القادر وأخبار الجزائر (سيرته السيفيّة)، محمد عبد القادر الجزائري، المطبعة التجارية، الإسكندرية ١٩٠٣م.
- ٣- تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، محمد بن عبد القادر الجزائري، شرح وتعليق ممدوح حقّي، دار القنطرة العربية، بيروت ١٩٦٤م.
- ٤- حياة الأمير عبد القادر، شارل هنري تشرشل، ترجمة: د. أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، الجزائر ١٩٨٢م.
- ٥- الرحلة الحجازية، محمد السنوني، تحقيق علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس ١٩٧٨م.
- ٦- كفاح الجزائر من خلال الوثائق، يحيى بوعزيز، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٦م.
- ٧- مذكرات الأمير عبد القادر، تحقيق محمد الصغير بناني ومحفوظ سماتي ومحمد الصالح الجون، شركة دار الأمة، الجزائر ١٩٨٨م.
- ٨- المستوى اللغوي، محمد عيد، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨١م.
- ٩- مفهوم التاريخ، عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ١٩٩٢م.
- ١٠- Bruno Etienne, Abd Elkader, Hachette, ١٩٩٤.

